الأبعادُ السياسيةُ

في مناظرات العلَّامَة الحِلِّيّ

حسين جويد موسى الكندي

النجف الأشرف، العراق

hjwd_xp@yahoo.com

الملخص

يأتي هذا البحث لبيان طبيعة تشكل المفاهيم الكلامية في أهم مباحث علم الكلام الإسلامي، وأقصد مسألة (الإمامة) عند العلَّامَة الحِلِّيّ ببعدها السياسي التي ظهرت في مجموعة من المناظرات التي شارك فيها في مُدَدٍ متفاوتة من حياته، ممَّا عزَّزَ مكانته العلمية، فكانَ رائدَ الإصلاح الديني في عصرٍ كَثُرَتْ فيه البدعُ والضلالةُ والفتنُ التي أشعلَ أوارها بعضُ مُدَّعي العلمِ من المتعصبين ممَّن كان معاصرًا للعلامة، كابن تيمية ومَن على شَاكلته، وبيانات هذا البحث تتمحور في إزاحة الغموض عن البُعدِ الكلاميّ في الحركة العلمية للعلامة الحليّ الذي يتجسّد في دوره التأريخي لترويج التراث الشيعي بمختلف صوره المعرفية انطلاقًا من مدرسة الحلّة وصولًا إلى جبل عامل وإيران والأحساء وسائر البقاع في أقصى أَرجَاءِ المعمورة، كما يتضمّن البحث بيان دوره الفاعل في ترسيخ المبادئ الكلامية لمدرسة الحلّة.

الكلمات المفتاحية:

العلَّامَة الحِلِّيّ، مدرسة الحلة العلمية، علم الكلام، التراث الشيعي، خدابنده.

Political Dimensions in the Debates of Al-Allama Al-Hilli

Hussein Jawad Musa Al-Kindi
Najaf al-Ashraf
hjwd_xp@yahoo.com

Abstract

This research aims to elucidate the nature of the conceptual formations in the most important discussions of Islamic theology, specifically addressing the issue of Imamate in the perspective of al-Hilli and its political dimensions. These dimensions surfaced in a va-riety of debates in which he participated throughout his life, enhancing his scholarly standing. He emerged as a pioneer of religious reform in an era marked by innovations, deviations, and conflicts ignited by some self-proclaimed scholars who were contempo-raries of al-Hilli, such as Ibn Taymiyyah and those of a similar mindset. The findings of this research focus on dispelling the ambiguity surrounding the theological aspect of al-Hilli's scientific movement, manifested in his historical role in promoting the Shia heritage in various forms of knowledge. This extends from the Hilla school to Jabal Amel, Iran, al-Ahsa, and all corners of the world. The research also highlights his active role in solidify-ing the theological principles of the Hilla school.

Keywords:

Al-Allama al-Hilli, Hilla School of Knowledge, Theology, Shia Heritage, Khadabanda.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أقرانُ العَلَّامة الحلـيّ في تاريخ الإنسانية كالكبريت الأحمر ندرة، رجل ذو موهبة خارقة وعبقرية فذة، مشتملٌ على كمالات العبقرية مع ذكاء مفرط، يمتلك في أعماق عقله طاقة هائلة ورصيدًا ضخمًا من الفكر والمعرفة والعلوم، ترجمها عملًا دائبًا وجهدًا مستمرًا، ما تزال آراؤه بذات قيمتها العلمية منذ أكثر من سبع مئة سنة خلت، يوم كانت ذات تأثير فعال في جملة كبيرة من مفكري الإسلام، عالمِ أسهم في تسيير المعرفة خطوات نوعية ما كانت لتلقى ذات الدفع من عقل غيره، مدافع عنيد عن مبدأ أهل البيت عليهم السلام الذي تظاهرت عليه قوى الظلام وحاربت أتباعه بكل سلاح.

بيانات هذا البحث تتمحور في إماطة اللثام عن البُعد الكلاميِّ في الحركة العلمية للعلامة الحلي الذي يتجسّد في دوره التأريخي لترويج التراث الشيعي بمختلف صوره المعرفية انطلاقًا من مدرسة الحلّة وصولًا إلى جبل عامل وإيران والأحساء وسائر البقاع في أقصى أرجاء المعمورة، كما يتضمّن بيان دوره الفاعل في ترسيخ المبادئ الكلامية لمدرسة الحلّة.

وجاء البحث لبيان طبيعة تشكل المفاهيم الكلامية في أهم مباحث علم الكلام الإسلامي، وأقصد مسألة (الإمامة) عند العلَّامَة الحِلِّيّ ببعدها السياسي التي تمظهرت عبر مجموعة من المناظرات التي خاض غمارها في مراحل متفاوتة من سني حياته، مما عزز مكانته العلمية، فكان بحق رائد الإصلاح الديني في عصر كثرت فيه البدعُ والضلالةُ والفتنُ التي أشعل اوارها بعض مدعي العلم من المتعصبين ممن عاصروا العلَّامة، كابن تيمية ومَن على شاكلته.

أهمية البحث: يُعدُّ مبحث الإمامة من أهم المباحث التي يمكن أنْ تطرحَ في

الدراسات والمصنّفات الإسلامية، وقد كان لعلماء الشيعة دراسات مستفيضة في هذا الباب العقائدي المهم، وتأتي آراء العلَّامَة الحليّ في مقدمة تلك الجهود، إذْ كانت آراؤه العقائدية بصورة عامة محط أنظار علماء المسلمين، ولعل هذا راجع إلى ملامستها لقضية حفظ وصون الدين بعد النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، وتعدُّ أيضًا من أكثر المواضيع الحساسة التي بسببها سفكت دماء الآلاف من المسلمين عبر التاريخ الإسلامي، ولا سيما دماء الشيعة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، وكذلك تعدّ الإمامة من أهم المسائل التي وقع الخلافُ فيها بين الشيعة وغيرهم، خاصة في المدَّة التي عاصرها العلَّامَة الحليّ، التي تعدُّ من أكثر فترات التاريخ الإسلامي تعقيدًا، بسبب الغزو المغوليّ لديار الإسلام واستيلائهم على مقاليد الحكم في الأمصار الإسلامية.

مشكلة البحث: لابد لكل بحث من مشكلة يحاول الباحث من خلالها إجالة النظر في طبيعة عناصرها للوقوف على نتائج جديدة، وبحثنا هذا في سياق البحوث التاريخية التي تعتمد على استقراء الحوادث والوقائع والخروج بنتيجة تتعلق بطبيعة التكوين العقائدي الذي تتركه تلك الحوادث على صفحات المعارف والعلوم المتداولة والعقائدية منها بصفة خاصة، ولأنَّ المدَّةَ التاريخية التي تلت دخول المغول إلى بغداد سنة ٦٥٦هـ كانت من أصعب مراحل التاريخ الإسلامي، نتيجة حالة الهياج الاجتماعي نحو إثارة النعرات والضغائن الطائفية في استغلال سلبي للحوادث الواقعة في الزمن الماضي ومحاولة الإضرار بالآخر العقائدي عن طريق التعمية على تلك الحقائق، وقد حفظ التاريخ وقوف العلَّامَة الحِلِّيّ بإزاء تلك المحاولات ليجدد بذهنيته العلمية الوقادة سبل الحقيقة المشرعة في أفصح بيان وأتمِّه.

فرضية البحث: ابتنى البحث على فرضية مفادها محاولة بعض علماء الإسلام

التهويـن من عقائد الشـيعة الإمامية الاثني عشرية، والنيل من اسـتحقاق علمائهم العلمـي، عنـد السـلاطين المغول، ومحاولـة التقـرب منهم من خلال جـرح علماء الشـيعة في طبيعة عقائدهم بمسـألة إمامـة الأُمة، التي كانت ولم تـزل تتعلق بعرى موثقـة بالحكـم والحاكميـة، الأمر الذي يستشـعر الحاكـم منه الخـوف والارتياب بسبب طبيعة ذلك الاعتقاد، ومن هنا انبرى العلَّامَة الحِلِّيّ لبيان تلك التوضيحات في مجمل حركته العلمية، سـواء ما كان منها تأصيلًا وتقعيدًا علميًّا، أو على شـكل مناظرات يغلب عليها الطابع الخطابي في أندية سلاطين المغول.

منهـج البحـث: اعتمد الباحـث في منهجه البحثي على منهجيين أساسـيين في أغلب العلوم وهما:

١ ـ المنهج الاسـتقرائي: قامَ البحثُ على جمع البيانات الخاصة بمسـألة الإمامة ومدى تأثير آراء العلَّامَة الحِلِّيّ في خصوص هذه المسالة على بلورة فهم عام لها لدَى المسـلمين أوَّلًا، وذلـك لانـصراف همَّة بعـض أدعياء العلم لدحض رأي الشـيعة الإماميـة في خصـوص هذه المسـألة، ومِنْ ثَـمَّ التأثير على مصدر القـرار في الدولة الإسـلامية؛ ليبدو أكثر تَفَهُّمًا لطبيعة الاعتقادات الإسـلامية وإيمان أفراد الأمة بها، ومـن هنـا كان الاهتمامُ بنـصٍّ، أو معلومةٍ مُعيّنةٍ، يرى الباحثُ أنها تُسـهم في توفير بيانات دقيقة تساعدُ على إضافةِ وصفٍ مناسبٍ لحدود هذه المسالة الغاية في الدقة.

٢ ـ المنهج التحليلي: إنَّ سياق البحث يقتضي بيان مفهوم الإمامة عند العلَّامَة الحِلِّيّ، ومن ثَمَّ الانطلاق نحو تأثر منهجه الكلامي بتلك المسألة، فقد توجهت همة الباحث نحو تحليل النصوص التي اعتمد عليها العلَّامَة الحلـيّ لتثبيت آرائه في هذه المسـالة، إذ اجتهد في تأويل المتشـابه منها بحمل بعضها على بعضٍ، تقييدًا وإطلاقًا أو تخصيصًـا وتعميـمًا؛ لضـمّ المؤتلف وفصل المختلـف، حتى تتّضح مشـكلاتها، وتنكشـف مبهماتُها، لتبدوَ بصورةٍ واضحة متكاملة، فقام الباحث بدراسة المفاهيم

الكلاميـة الواردة في مقالات العلَّامَة الحِلِّيّ، ودراسـتها من خلال النّظر في مواطن ورودها واسـتعمالاتها المختلفة، في سـياق رأيه في مسـالة الإمامة، ليخلص إلى بناء رؤية متكاملة عن المنهج الكلامي عنده ﷺ.

هيكليـة البحـث: يتألَّفُ هذا البحث من مقدمة ومبحثـين وخاتمة، وقد تناول الباحـثُ في مقدمته بيانات تتعلق بمفهوم الإمامـة ومنهجيته في البحث والفرضية التـي ابتنـى عليها البحث، اما المبحث الأول فقد توقَّـر على مطلبين، فجاء المطلب الاول ليسلط الضوء على المدرسة الكلامية الحلية، والأدوار التي اضطلع بها عمالقة الفنـون المعرفيـة في هذه الحاضرة، وتكفـل المطلب الثاني ببيان طبيعـة المدَّة الزمنية التـي عاصرها العلَّامَة الحلـيّ وأثرهـا في الصياغات الكلامية لديه، وجاء المبحث الثـاني بمطلبيه موضحًا أهمّ الـرُّدود التي وردت في مناظرات وكتب العلَّامَة الحِلِّيّ عـن مسـألة الإمامة هذه، وقد تكفـل بذلك المطلب الأوَّل، أمـا طبيعة التغيير التي خلقتها آراؤُهُ سـواء على مستوى النظام الحاكم أو على مستوى الوعي الجمعي فقد تكفـل ببيانها المطلب الثاني، وكانت الخاتمة لتلخـص أهم النقاط التي ارتكز عليها البحث، لبيان الموضوع الذي انعقد لتوضيحه في إجمالٍ غير مُخِلٍّ بالمقصد.

وختامًـا فليـس الكـمال مـن جبلة الممكـن، وإنَّـما توافـرت لديـه القابلية على الانخـراط في مسـالكه؛ لأن الكمال لله تعـالى وحده، وعزائي أنَّ ذلـك غاية الجهد واسـتفراغ الوسـع في بيـان المطالب، أُقدِّمه مـع إقرارٍ بنقص فيـه، ناتج عن تقصير وغفلة، والحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما تكرم.

المبحث الاول

علم الكلام في مدرسة الحلة العلمية

إذا أردنا التعرُّف إلى المكانة الحقيقية لآية الله العلامة[١] الحلي في التأريخ الكلامي الشيعي، لا بدّ لنا من اكتشاف خلفية تراثه الفكري من المصادر الأولى لمعارفه قدس سره، ومن المؤكّد أنّ هذا التراث القيِّم يضرب بجذوره عميقًا في مدرسة الحلّة العريقة بشكلٍ أساسيٍّ، هذه المدرسة التي فتحت أبوابها للعلماء وطلاب العلم في القرن السادس الهجري، وبانت صدارتها حتّى القرن الثامن، لتصبح منارةً لنشر التراث الكلامي والفقهي لشريعة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله بجميع مذاهبها، فانضوى تحت مظلّتها أشهر الفلاسفة وعلماء الكلام في تلك الآونة، وهو أمرٌ لم يسهم في الحفاظ على إنجازات السلف وعطاءاتهم الفكرية وترويجها في شتّى أرجاء المعمورة فقط، بل ساعد على انتشار علم الكلام وتناميه بعد أن توفّرت أنسب الأجواء للبحوث والنقاشات العلمية لتبدأ بذلك واحدةٌ من أهمّ مراحل تأريخ علم الكلام الديني وأكثرها حساسيةً[٢].

إنَّ هذه الأجواء العلمية في هذه المدرسة الرائدة دعت كثير من مشاهير علم الكلام إلى الهجرة إلى مدينة الحلّة والإقامة فيها، ولا سيَّما متكلمي مدرسة بغداد بعد فتنة السلاجقة[٣]، فكان يردُ عليها المتكلمون من الرّيّ والبحرين والدرس فيها والتأليف كذلك[٤]، ليخلّفوا لنا آثارًا قيّمةً في هذا المضمار و تتلمذ على أيدي هؤلاء العلماء الفطاحل في علم الكلام وسائر العلوم من أمثال العلَّامَة الحِلِّيّ، وفي تلك الآونة أيضًا هاجر الخواجة نصير الدين الطوسي[٥] إلى مدينة بغداد قادمًا من مشرق البلاد الإسلامية، إذ تَوَلَّى منصبَ الوزارة، لكنّ مدرسة الحلّة استقطبته نظرًا لسمعتها الراقية وسعة نطاق علومها، فربطته فيها علاقاتٌ مع كبار علمائها، وبقي يتراود عليها حتّى التحق بالرفيق الأعلى.

وحظي العلَّامَة الحِلِّيّ عند الطوسي بمكانة سامية، وقد اصطحبه في إحدى رحلاته إلى بغداد، وسأله [في الطريق عن اثنتي عشرة مسألة من مشكلات العلوم، إحداها انتقاض حدود الدّلالات بعضها ببعض[٦]، وتولى الحلي شرح بعض كتب أستاذه الطوسي في الفلسفة والكلام، ككتاب قواعد العقائد وتجريد الاعتقاد[٧]، وهو أول شارح لكتاب (التّجريد)، بل من أهم الشّراح له، إذ سهّل بشرحه فهم الكتاب الذي كان يصعب فهمه لشدّة اختصاره ودقّة المسائل المطروحة فيه، وقد أثنى العديد من شرّاح التّجريد على شرح العلَّامَة الحِلِّيّ، من بينهم شمس الدين الأصفهاني الذي قال: «لولا شرح الحلّي لَمَا شُرح هذا المتن[٨]»، والطوسي نفسه يقول في هذا المعنى: «لولا هذا الفتى العربي- يعني العلَّامَة الحِلِّيّ- لبقيت كتبنا بلا شرح»، كما يقول عندما سئل -بعد زيارته الحلّة- عما شاهده فيها: «رأيت خِرّيتًا ماهرًا، وعالمًا إذا جاهد فاق»[٩].

ومن المؤكّد أنّ وجود أساطين المعرفة في مدينة الحلة آنذاك يعدُّ دليلًا واضحًا على المكانة العظيمة التي نالتها في مجال العلوم العقلية، فقد استوطن فيها علماء كبار من أمثال قطب الدين الرازي والكاتبي القزويني وسيف الدين الآمدي، وهؤلاء في الحقيقة من رموز علماء الكلام والفلسفة في عصرهم، ومن الجدير بالذكر أيضًا أنّ بعض علماء الشيعة المعروفين، كأُسرة ابن طاووس، رغم إقامتهم في مدينة بغداد لكنّهم حافظوا على تواجدهم في الحلّة التي كانت مقرّهم العلمي.

لقد احتلّت هذه المدينة مكانةً علميةً مرموقةً برغم ازدهار بغداد آنذاك وحملها لراية العلم والمعرفة وتنوّع المذاهب الدينية فيها؛ بل إنّ هذه العاصمة تهمّشت أمام عظمة الحلّة ولم تضاهها علمًا ومعرفةً، إذ توسعت مدرسة الحلة الكلامية بشرح وتحليل الفكر الكلامي الذي كان مطروحًا في بغداد، بل بذل أساطينها جهودًا واسعةً على هذا الصعيد وأضافوا عليه منجزات كلامية جديدة عبر استثمار

القواعـد الأساسـية التي تـمّ وضعها في علـوم كلام المعتزلة والأشـاعرة، فتنامت فيها التيّارات الفكرية، فمن ناحيةٍ انتعشـت النشـاطات العلمية لأصحاب النزعة العقلية وعلماء الكلام الذين تشـبّثوا إلى حدٍّ كبيرٍ بالإنجازات العلمية التي حقّقها نظراؤهـم المعتزلة وعدّوها علومًا بشريـةً مباحةً وجديرةً بالبحث والتحليل، ومن ناحيةٍ أخرى ازدهرت العلوم الفقهية، وهي ميزة كبيرة تحتسـب لهذه المدرسة، اذ لم يكـن اجتماع أنماط علمية متعددة طبيعيًّا في المدارس العلمية، إذ تتخذ كل مدرسـة طابعًـا خاصًـا في مناهجها وتناولها لمفردات الـتراث أو مفهومها للتجديد[١٠]، غير أنَّ مدرسـةَ الحلة كانت تحتسـب لها هذه الخاصية، فكان علماؤها فقهاء ومتكلمين وأُصوليين في الوقت نفسه.

إنَّ مدرسةَ الحلَّةِ كانت أكبر مدرسة كلامية شيعية على الإطلاق، عندما ورثت كلّ زخم مدرسـة بغداد من حيث تنوّع علومها وسـعة نطاقهـا، وكذلك من جهة إنجازاتهـا على صعيد علـم الكلام، الإمامي عندما تمكّن علماؤها من طرح أُسسـه في نطاقٍ جديدٍ، فضلًا عن أنّهم استطاعوا التركيب بين الكلام والفلسفة ليسجّلوا في أنصـع صفحـات التأريـخ انطـلاق مرحلةٍ جديـدةٍ في تأريخ علـم الكلام لدى الشـيعة، وهنـاك كثير من الشـواهد التأريخية التي تثبت هذا التحـوّل على يد علماء حليـين، منهـم المحقّق الحلّي، وأسـتاذه في علم الكلام نجم الدين بن وشّـاح الحلّي (ت ٦٧٦هـ)، والسـيّد ابن طـاوس (ت ٦٦٤ هـ)، ومفيد الديـن محمّد بن جهم الأسدي (ت ٦٨٠هـ)، ويوسف بن عليّ بن المطهّر الحلّي والد العلّامَة الحِلّي.

ويمكـن القول إنّ الفكر الكلامي الشـيعي الذي روّجه العلّامَة الحِلّيّ اسـتمرّ حتّى قرنين من الزمن، وطوال هذه الفترة لم تطرح أيّة أفكارٍ جديدةٍ ولم يقم العلماءُ إلّا بِـشرح مـا ورثـوه من مدرسـة الحلّة وتفسـيرهُ، والدفـاع عن متبنّيات السـلف الكلامية التي تعدُّ مدرسـة الحلة المنمذج لتلك الآراء والناقد الذي أثر في تطويرها وإيجاد مساحة أكبر لدلالاتها في الساحة المعرفية في ذلك الوقت.

أثر مدرسة الاعتزال البغدادية في المدرسة الكلامية الحلية

يعود الفضل في ريادة مدرسة الحلّة وازدهارها في الواقع إلى غنى التراث العلمي للشيعة في مدرستي بغداد وقم، ففي عصر نماء هاتين المدرستين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين شهدت الأوساط العلمية الشيعية حركةً علميةً واسعة في مجالي الفقه والكلام.

وعلى الرغم من الاختلاف الجوهري الواضح بين المدرستين إلَّا أَنَّهما أسهَمتا بشكلٍ واضح في بلورة أغلب المباحث الكلامية التي اهتم بها المتكلمون في مدرسة الحلة الكلامية، لقد كان لهذا الاختلاف أثره حتى في المنظومات المعرفية الأخرى الفقهية والتفسيرية، لكنه لم يخرج من إطار الاختلاف النظري في تكييف المصادر الروائية التي يعتمد عليها المحدثُ والفقيهُ والمتكلمُ، ففي الوقت الذي كانت فيه مدرسة قم تنتقد مدرسة بغداد في كونها بالغت في اللجوء إلى الاستدلالات العقلية واتّخذوا جانب التأويل غير الصائب للقرآن والحديث، ممّا يعني أنّهم ابتعدوا عن المصادر الدينية الأصيلة التي تعدّ الوسيلة الأساسية لمعرفة كنه المعارف العقائدية، عاب علماء بغداد على القميين تسليطهم الضوء بشكلٍ أساسيٍّ على النزعة الحديثية البحتة التي انتهجها المحدّثون هناك، إذ تسبّبت هذه النزعة الجافّة بفقدان الدقّة والصواب في المباحث العقلية، ممّا أدّى إلى تبنّيهم معتقداتٍ مشوبةً بالجبر والتشبيه.

امتازت المدرسة البغدادية بتنوع علمي كبير؛ لأنَّ بغدادَ كانت محّط أنظار علماء المسلمين جميعًا بصفتها عاصمة العالم الإسلامي آنذاك، فاستقطبت مدرستها علماء الشيعة منذ باكورة تأسيسها وهاجر إليها الكثير من أتباع أهل البيت عليهم السلام، لا سيَّما بعد ضمور دور مدرسة الكوفة، لأسباب كثيرة تأتي في مقدمتها الأسباب السياسية، ونتيجة لنشاط متكلمي الشيعة تحوّلت المدرسة البغدادية شيئًا فشيئًا إلى مركزٍ رسميٍّ للمذهب الإمامي؛ ولو تتبّعنا التأريخ لألفينا أنّ الفضل في ازدهار

علوم الشيعة ببغداد، ولا سيّما علم الكلام، مدينٌ إلى متكلمي الكوفة الذين كان جلهم من المحدثين، فهذا العلم انتقل إلى عاصمة الدولة الإسلامية من مدرسة الكوفة العلمية التي ازدهر فيها علم الكلام منذ بواكير تأسيس هذه المدينة بسبب اختلاف آراء علماء مدرستها في مسألة غاية في الأهمية، بل تكاد تكون الأُسّ الذي أسس لعلم الكلام الإسلاميِّ، وهي مسألة (الإمامة)[١١]، وبلغت مدرسة بغداد الذروة في علم الكلام أواخر القرن الرابع الهجري والنصف الأوّل من القرن الخامس، في رحاب منظومةٍ معرفيةٍ منسجمةٍ لم يسبقها نظيرٌ، إذ أرست دعائمه شخصياتٌ يُشار إليها بالبنان، من قبيل الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) والسيّد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) وبعض تلامذتهما من أمثال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

أمَّا مدينة قم فلم تكن مركزًا كبيرًا لنشر علوم الكلام الشيعية في إيران، إذ بَلَغَتْ أقصى غاياتها في هذا المضمار خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، بشكلٍ خجول، وكان تأثيرها في وجود المدرسة الكلامية الحلية محدودًا لهذا السبب، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع من ظهور قاماتٍ علميةٍ كبيرة فيها، من أمثال أحمد بن محمَّد بن عيسى وإبراهيم بن هاشم وسعد بن عبد الله ومحمّد بن الوليد[١٢]. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مدرسة بغداد الكلامية بقيت تزاول نشاطها العلمي لمدَّةٍ أطول من نظيرتها قُم؛ لأسباب معرفية ونفسية وسياسية عديدة، هذا فضلًا عن أجوائها الاجتماعية والثقافية التي جعلت مدّها العلمي يجتاح مناطق شاسعة من البلاد الإسلامية، وبعبارةٍ أخرى أصبحت المركز الرسمي الذي يعكس متبنَّيات التشيُّع الإماميّ في مختلف الأوساط الثقافية[١٣].

إلَّا أنَّ هذا الازدهار في مدرسة بغداد لم يدم طويلًا، فقد طرأت كثيرٌ من الأحداث التي أسفرت عن أفول نجمي هذين المركزين العلميين، فلم يبق لتلك العظمة والرفعة أثرٌ ملحوظٌ في أواخر القرن الخامس الهجري، وعلى الرغم من عدم وجود دراساتٍ دقيقةٍ ومعتمدةٍ لمعرفة العوامل الأساسية التي أدت إلى هذا

الزوال الثقافي، لكن لا يمكن تجاهل الظروف السياسية والاجتماعية التي واجهها الشيعة في العصر العباسي المتأخر مما أدى تشتّت علماء الشيعة في مختلف أصقاع البلاد الإسلامية نتيجة التضييق على نشاطهم العلمي والديني[١٤].

أُسِّسَ المنهجُ النقديُّ الكلاميُّ لمدرسة الحلة على تراث المعتزلة، ويعد المحقّق الحلّي واحدًا من أساتذة هذه المدرسة الكلامية، وقد انعكست آثارها في متبنِّياته الفكرية بشكلٍ واضح، إذ قال في كتاب (المسلك في أصول الدين): «ولـمَّا كانت الطرق إلى ذلك مختلفةً والوسائل إليه منكرة ومعرفة، وجب أن نسلك أتمّها تحقيقًا وأوضحها مسلكًا وطريقًا، وهو المنهج الذي سلكه متأخّرو المعتزلة؛ رأيت أن أملي مختصرًا يقصر عن هجنة التطويل...»[١٥].

علم الكلام عند العلَّامَة الحِلِّيّ

من الحريِّ بكلِّ باحثٍ للحقيقة العلمية أنْ يُشيرَ إلى النشاط الكلامي للعلَّامة، ولا بُدَّ من تسليط الضوء على هذا الأمر في إطار دراساتٍ تحليليةٍ تخصّصيةٍ، ومن هذا المنطلق سنقوم في هذا المطلب بهذا الإجراء بغية بيان الموضوع في ضمن بحثٍ علميٍّ تحليليٍّ.، فالمجال ما يزال مشرعًا أمام البحث والتحقيق لاستكشاف كثير من المعلومات الخاصّة بالشخصية العلمية له، سواء في مصادره الخاصّة أو فيما دُوّن حوله من قبل الآخرين، وكل ذلك بهدف بيان جوانب من تأريخ الشيعة بقيت طوال قرونٍ مطوّيةً في صفحات النسيان، إذ لم يقتصر دور العلَّامَة الحِلِّيّ على التدريس بل تعدَّى ذلك إلى شؤون الإدارة الأُخرى، ففضلًا عن كونه أحد أكابر فقهاء الإمامية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فقد كان من طلائع العلماء والمشرّعين في العراق، علاوةً على إشرافه على إدارة الحوزات والمدارس الدينية التي كانت الحلّة يومذاك مركزها الرَّئيس[١٦].

إنّ كلّ باحثٍ ومتتبّعٍ لأحوال العلَّامَة الحِلِّيّ وإنجازاته العلمية يدرك بوضوحٍ

أنّه شـمّر عن ساعديه للبحث والتحقيق في المواضيع الكلامية لأجل إنارة الطريق أمام أتباع مذهب أهل البيت، ولم يقصر هذا الأمر على مُدَوَّناته الكلامية ومساعيه الواسـعة في هذا المضمار فَحسـب، بل يبـدو جليًّا في آثاره الفقهيـة وبعض مدوّناته والإجـازات التـي منحها لطـلاب العلم والأسـاتذة، إذ اسـتثمرَ كلَّ فُرصةٍ كانت تسـنح له لتسـليط الضوء على المباحث العقلية بشكلٍ يفوقُ ما يبدر من كلِّ فَقيهٍ أو مجتهدٍ آخر كما جرت عليه العادة بين أرباب علم الفقه. وسوف نجعل الإنجازات العلميـة هـي المعيـار في تقييم الموضـوع، فيمكن والحـال هذا عَدَّه مـن جملة علماء الكلام في عصره، وفي الوقت نفسـه سنشـهد أنّ إنجازاته لا تتضمّن مبادئ خاصّة لإرساء مدرسةٍ كلاميةٍ مستقلّةٍ جديدةٍ تختلف عن سائر المدارس الفكرية، لكن مع ذلـك فهـي تعكس مدى عمق أفـكاره الكلامية التي تجعله عـلى رأس قائمة علماء الكلام في القرن الإسلامي الثامن.

مـن جملـة المعطيات هو مقـدار التنوّع الفكـري الكلامي للعلامـة الحلي الذي جعل من مدرسـة الحلّة غاية القاصدين، وهـذا الأمر بدوره يعكس ضرورة إعادة النظر في دراسة مشارب هذه المدرسة العريقة وتحليلها؛ لأنّه لم يحظ باهتمام يتناسب مع مسـتواها الحقيقي، فقد كانت مدرسة الحلّة تشهد في باكورة تأسيسها نشاطاتٍ علميةً وعقائديةً تمحورَت بِشَـكْلٍ أساسيٍّ حول شرح آراء السيد المرتضى الكلامية وتحليلهـا، إذ تعدُّ تلـك المدة بدايةً تَحَوُّل في الاتّجاهات الفكرية وبداية تاريخ فكري جديـد امتـاز بالرّكـود والجمـود، على الرغـم من بقاء علـم الكلام ثانويًّـا في تلك الآونة، بحيث لم تشـهد السـاحة سـوى عددٍ قليلٍ من المتخصِّصين والمبدعين على صعيد المباحث الكلامية، وقد نجم عن هذا الأمر تدوين عددٍ ضئيلٍ من المؤلَّفات في الـكلام والعقائـد. ولكن بمرور الزمـان تغيَّرَتِ الأوضاعُ إثرَ رواج المنافسـات المذهبيـة وتبـادل النقد بـين مختلف الفرق والأديـان، وأيضًا بسـبب افتقار علمي،

الفقـه والأصول إلى المباحث الكلامية، الامر الذي لفت انتباه العَلَّامة الحِلِّيّ ودعاه إلى تطويـر العلوم العقلية وتقويتها؛ وقد تجلى هذا الأمر عنده ﷺ بشـكلٍ ملحوظٍ، بحيث يصفه أستاذه المحقق الحلي بأنه: أعلم الجماعة بعلم الكلام وأصول الفقه[١٧].

غـير أنَّ الثابـت بالتحقيق أنَّ آراء العلَّامَة الحِلِّيّ الكلامية قد تطورت كثيرًا عن آراء السـيد المرتـضى، إذ تَبَنَّـى مناهجَ جديدةً في علم الكلام لا تنسـجم مع ما تبنَّاهُ أتبـاع منهج السـيّد المرتضى من فكرٍ كلاميٍّ متأثّرٍ بالفكـر المعتزلي المتأخّر، وكذلك تباينـت مع شروحات أسـتاذه المحقـق الحلي على تـراث متأخري المعتزلـة؛ عندما تجاوز أسـوار الاعتزال البصريّ، وأقبل على دراسـة القواعد والأصول الفلسـفية وتحليلها، فاتّجه نحو الانفتاح على علم الفلسفة[١٨].

ومنهـج العلَّامَـة الحِلِّيّ في الفلسـفة عقليّ محض؛ لكون مسـائلها محض عقلية، ولذا أكثر من اسـتعمال الأدلّة والبراهين المنطقيّة، وكثيرًا ما يلجأ إلى برهان الخلف لإثبـات مطلوبه، فيفـترض عكس النّتيجة التـي أراد الوصول إليهـا ثم يدلل على بطلانها لتصح النّتيجة، كما يتجلّى ذلك بوضوح في مسـألة وجود واجب الوجود، إذ يقـول: اختلـف القوم في وجـود واجب الوجود، فذهبت طائفـة إلى أنّ وجوده نفـس حقيقته، وآخـرون إلى أنّه زائد عليهـا، والحق هـو الأول، والدّليل عليه: إنّ الوجـود لو كان زائدًا لـكان صفة للماهية فيفتقر إليها فيكـون ممكنًا، وكلّ ممكن له مؤثّر فلوجوده مؤثّر، هذا خلف[١٩].

كانـت آراء العلَّامَة الحِلِّيّ الكلاميّ تتجه اتجاهًا آخر غير الذي كانت تتمحور حولـه الابحـاث الكلامية عندما شـهدت مدرسـة الحلة تحوّلًا معرفيًّا أسـفر عن حـدوث تغيـيراتٍ جذريةٍ في كلام الإمامية، فقد اتضح بصـورة جلية أنَّ العَلَّامَةَ الحِلِّيّ كان شـديد التأثُّر بالفلسـفة، وجَهدَ في إدخالهـا في صلب البحث الكلامي، ولعـل مردَّ ذلك يعود إلى تأثره بأُسـتاذيه الخواجة نصير الدين الطوسي والشـيخ

عـلّي بن ميثـم البحراني[٢٠]؛ إذ ألّـف الأوّل كتاب (تجريد العقائـد)، والثاني ألّف كتاب (قواعد المرام)، وهو أمرٌ أرسـى دعائم المنهج الكلامي المتأخّر بين الشـيعة الإمامية والذي اسـتمرّ لمدّة ثلاثة قرون، بصفته أعظم تيّارٍ كلاميٍّ إماميٍّ في شتّى أرجاء العالم الإسلامي، لقد تتلمذ العلّامَة الحِلّيّ على يدي هذين العلمين الفذّين وتنـاول أبحاثهـما العلميـة بالـشرح والتحليـل، ونظـرًا لمقامه السـياسي وقدرته الفقهيـة اسـتطاع أن يـروج مذهبهـما الفكـري والفلسـفي في مختلـف الأوسـاط العملية لأتباع أهل البيت عليهم السلام.

وأمّا منهج العلّامَة الحِلّيّ في علم الكلام فيعتمد على المنهج التوفيقي بين العقل والنّقـل، بل مقدِّمًـا للعقل على النّقل في حـالات التّعارض وعدم إمـكان التّوفيق بينهـما، كما هو الحال في النّصوص القرآنية التي يظهر منها للوهلة الأولى التّجسـيم في ذات البـاري تعالى، فإنَّ العلامـة يصرفها عن ظاهرها في ذلك ويؤولها إلى معنى آخـر يوافـق العقـل. ويرتكز العلامـة في ذلك على قاعـدة كلاميّة متّفـق عليها بين الإمامية وهي: أنَّ الشَّرعَ موافقٌ للعقل، وإذا ورد نصّ شرعي يوهم ظاهره خلاف العقـل فـلا بد من تأويله؛ لأنّ أصل الالتزام في قضايا الشّرع وأحكامه قد دلّ عليه العقـل، وبعبارة أخرى إنّ ثبوت الشّرع إنّما يكون بالعقل، وعلى العموم فقد سـاد المنهج الفلسـفي الجدلي على جلّ الأبحـاث الكلامية التي عرضها الحلّي في مؤلّفاته تماشـيًا مع طريقة أسـتاذه الفيلسـوف نصير الدين الذي يعدُّ بحقّ مؤسـس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي.

آثار العلَّامَة الحِلِّيّ النظرية في علم الكلام

ألّـف العلَّامَة الحِلِّيّ كتبًا ورسـائل عـدّة، و كانت أوقاتـه ﷺ في معظمها تمضي تدريسًا وتأليفًا وإرشادًا، لا مكان فيها للبطالة والملل، فأثمرت عطاءً فكريًّا واسعًا ومهمًّا، حتى بلغ نتاجه الفكري المئة والعشرين مؤلّفًا في مختلف حقول المعرفة التي اشـتهرت في عـصره[٢١]، وهـو إرث ضخم جـدًّا فيما إذا قيـس بالمـدة الزَّمنية التي عاشـها الحلّيُّ، وهي خمسٌ وسبعون سـنةً، وإلى هذا أشار رونلدسن بقوله: وكانت كثرة تآليفه أعجوبة لكافة من عرفه[٢٢]، وسوفَ أقتصرُ على تعداد مؤّلفات العلامة الكلامية والفلسـفية، وذلك انه اسـتعمل الفلسـفة بكثرة في مباحث علم الكلام، وقـد تجـاوزت آثار العلَّامَـة الحِلِّيّ في هذه العلوم الخمسـين مؤّلفًـا وأهمّها: الجوهر النضيـد في شرح منطـق التّجريـد للطـوسي، والأسرار الخفيـة في العلـوم العقلية: وهي المنطق والطّبيعي والإلهي[٢٣]، ومراصد التّدقيق ومقاصد التّحقيق: في المنطق والطّبيعي والإلهي، وإيضاح المقاصد من حكمة عين القواعد.

وللعلَّامَـةِ الحلِّي كُتُبٌ أخرى في المنطق والفلسـفة إلَّا أنَّـهُ لَمْ يُعثر عليها، وهي: القواعـد والمقاصـد في المنطـق والطبيعي والإلهي، ونهـج العرفان في علـم الميزان، وتحرير الأبحاث في معرفة العلوم الثلاث، والدّر المكنون في علم القانون، وكتاب المقاومات، وحل المشكلات من كتاب التّلويحات للسهروردي، وإيضاح التّلبيس مـن كلام الشـيخ الرّئيـس، وإيضـاح المعضلات مـن شرح الإشـارات، والشّرح للطوسي، وكاشـف الأسـتار في شرح كشـف الأسرار لدبيران الكاتبي، وكشـف الخفاء من كتاب الشّفاء، وبسط الإشارات في شرح إشارات ابن سينا، والإشارات إلى معـاني الإشـارات، والتّعليم التـام في الحكمة والـكلام[٢٤]، وموضوعات هذه الكتب في الفلسفة والمنطق والعرفان كما هو واضح.

وأمّـا كتـب العلامـة في علم الـكلام فهي: (مناهـج اليقين في أصـول الدين:

وهو أوسع كتاب كلامي لدى العلامة، ونهج المسترشدين، ونهج الحق وكشف الصّدق[٢٥] و الباب الحادي عشر، وأنوار الملكوت في شرح الياقوت، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للطوسي[٢٦]، وكشف الفوائد في شرح قواعد العقائد للطوسي، ومنهاج الكرامة في مباحث الإمامة[٢٧]، والألفين الفارق بين الصّدق والمَين[٢٨]، والرّسالة السّعدية في الكلام، وكشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وواجب الاعتقاد، استقصاء النّظر في القضاء والقدر، ومعارج الفهم في شرح النّظم، والأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة، ونهاية المرام في علم الكلام، وتسليك النّفس إلى حظيرة القدس، وإيضاح مخالفة أهل السّنة للكتاب والسّنة، وإثبات الوصية للإمام علي عليه السلام)[٢٩]، وللعلّامة كُتُبٌ كلاميّة أخرى لم يعثر عليها، وهي: (كتاب التناسب بين الأشعرية والفرق السوفسطائية، ومنهاج الهداية ومعراج الدّراية، و مقصد الواصلين في معرفة أصول الدين).

ولا يخفى اهتمام المفكّرين والعلماء والباحثين بمؤلّفات العلّامَة الحِلّيّ، إذ هي محط أنظار كثير منهم تدريسًا وشرحًا وتعليقًا، على اختلاف اهتماماتهم؛ لتنوّع نتاجه الفكري الذي شمل أكثر علوم عصره، فأخرج من كلّ علم أكثر من مؤلّف يمتاز عن الآخر، فمنها مطوّلات، ومنها موجزات، ومنها شروح على كتب أخرى، مما جعل نتاجه متعدّدًا سواء في الفقه والأصول واللّغة والتّفسير أم في المنطق والفلسفة والكلام، هذا فضلًا عن بعض الكتب التي نسبت إلى العلامة ولم يقطع بصحة النّسبة، مثل: (كتاب المعتمد في فقه الشّريعة وشرح حكمة الإشراق، وكتاب الإيمان)، ولم نكن لنذكر تصانيف العلّامَة الحِلّيّ هنا لولا تعلقها بأصل الغرض الذي أعد البحث من أجله.

ومن طريف ما يروى من مناظراته رحمه الله مناظرته مع الإمام البيضاوي، وهي مناظرة لطيفة، إذ كان بينهما صحبة ذكرها الخوانساري في (روضات الجنات)

نقلًا عن (لسان الخواص) لرضي الدين القزويني، وفيها أجاب الحلي: وقفتُ على إفادة مولانا الإمام أدام الله فضائله وأسبغ عليه فواضله وتعجبت من صدور هذا الاعتراض منه، فإنَّ العبدَ ما استدل بالاستصحاب، بل استدل بقياس مركب من منفصلة مانعة الخلو بالمعنى الأعم عنادية، وحمليتين. وتقريره: إنه كان في الحالة السابقة متطهرا فالواقع بعدها: إما أن يكون الطهارة، وهي سابقة على الحدث، أو الحدث الرافع للطهارة الأولى، فتكون الطهارة الثانية بعده ولا يخلو الأمر منهما؛ لأنه صدر منه طهارة وهي رافعة للحدث في الحالة الثانية، وحدث واحد رافع للطهارة، وامتناع الخلو بين أن يكون الطهارة السابقة الثانية أو الحدث ظاهر، إذ يمتنع أن يكون الطهارة، وإلَّا كانت الطهارة عقيب طهارة رافعة للحدث، فالطهارة الثانية متأخرة عنه؛ لأن التقدير: أنه لم يصدر منه إلَّا طهارة واحد رافعة للحدث، فإذا امتنع تقدمها على الحدث، وجب تأخرها عنه، وإن كان في الحالة السابقة محدثًا، فعلى هذا التقدير: إما أن يكون السابق الحدث أو الطهارة، والأول محال وإلَّا كان حدث عقب حدث فلم يكن رافعًا للطهارة والتقدير أن الصادر حدث واحد رافع للطهارة فتعين أن يكون السابق هو الطهارة، والمتأخر هو الحدث فيكون محدثًا، فقد ثبت بهذا البرهان أن حكمه في هذه الحالة موافق للحكم في الحالة الأولى بهذا الدليل لا بالاستصحاب، والعبد إنما قال استصحبه أي أعمل بمثل حكمه. انتهى ولما وقف البيضاوي على هذا الجواب استحسنه جدا وأثنى على الحلي»، وقد تلخص رد العلَّامَة الحِلّيّ في كونه لم يبنِ على الاستصحاب كما توهم الإمامُ البيضاويُّ.

المبحث الثاني

آراء العلَّامَة الحِلِّي في الإمامة وتسخيرها في بيان الحق في مباحث علم الكلام

العلَّامَة الحِلِّيّ رائد مدرسة الحلة الكلامية إبّان القرن الثامن الهجري ليصبح العامل الرئيس في انطلاق مرحلةٍ جديدةٍ في مجال تكامل النظرية الكلامية الشيّعية، وقد احتلّ المرتبة الأولى في تلك المدرسة العظيمة؛ ولحسن الحّظ فمعظم تراثه الفقهي والكلامي لم يندثر، وقد بذل جهودًا حثيثةً في طلب العلم ونشره خلال أعوام عديدةٍ، وقد تطلب منه ذلك كثرة السفر والتنقل[٣٠]، فله رحلات عديدة وما يهمّنا منها هو رحلاته العلمية، وسأقتصر على أهم رحلة له، وهي رحلته إلى بلاد إيران، التي دامت من أواخر سنة ٧٠٩هـ. ولغاية سنة ٧١٣هـ[٣١]، فتتلمذ على يديه جمع كبير من طلاب العلم ليصبح بعضهم فيما بعد أساتذةً وأساطين لمعت أسماؤهم في شتّى أرجاء المعمورة، وكثير من هذه الجهود تمثلت في نشاطاتٍ كلامية تفوق ما أنتجه غيره من علوم كلامية وعقائدية وفقهية مجتمعة، لدرجة أنّنا قلّما نجد مَنْ يصنّفه في ضمن علماء الفقه فقط، بل يُعد غالبًا في ضمن علماء الكلام والفلسفة في القرون الماضية.

وقد ذكرت الروايات عدة مناظرات لها علاقة ببيانات العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره عن المواضيع الكلامية المهمة التي تعد مسألة الإمامة في مقدمتها ، شارك فيها العلَّامَة الحِلِّيّ مناظرًا للعلماء السنة، وفي مقدمتهم الشيخ تاج الدين الآوي، وقاضي القضاة نظام الدين عبد الملك المراغي[٣٢] الشافعي صاحب التآليف الكثيرة في المعقول، وابن صدر جهان الحنفي البخاري وقطب الدين الشيرازي، وعمر الكاتبي القزويني، وأحمد بن محمد الكيشي، وركن الدين الموصلي. وذكروا أن ابن العلامة فخر المحققين كان شابًّا في العشرينات من عمره وحضر مع والده، وقد

يكون شارك فيها، وقد أَدَّتْ تلك المناظرات إلى تغيير جوهري في عقيدة السلطان خدابنده[٣٣] ومِن ثمَّ إظهار تشيعه.

لطيفة استدلالية

ومن لطيف ما يُروى عن أُسلوب العلامة في مناظرة الخصوم أنه ﷺ دخل الى مجلس السلطان وتعمد أن يأخذ حذاءه بيده ويجلس عند السلطان، فقال الفقهاء للسلطان: ألم نقل لك إنهم ضعفاء العقول ؟! فقال الملك: سلوه ما فعل؟ فقالوا له: لأي شيء أخذت نعلك معك، وهذا مما لا يليق؟! قال: خفتُ أن يسرقه الحنفية كما سرق أبو حنيفة نعلَ رسول الله ﷺ، فصاحت الحنفية: متى كان أبو حنيفة في زمن رسول الله، بل كان تولّده بعد المائة من وفاة رسول ﷺ! فقال: نسيتُ، لعله كان السارق الشافعي ! فصاحت الشافعيةُ وقالوا: كان تولّد الشافعي في يوم وفاة أبي حنيفة، وكان نشوؤه في المائتين من وفاة رسول الله ﷺ فقال: لعله كان مالك! فقالت المالكية بمثل ما قالته الحنفية. فقال: لعلّه كان أحمد بن حنبل! فقالوا بمثل ما قالته الشافعية، فتوجه العلَّامة إلى الملك فقال: أيها الملك علمت أن رؤساء المذاهب الأربعة لم يكن أحدهم في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن الصحابة فهذه إحدى بدعهم، أنهم اختاروا مِنْ مجتهديهم هؤلاء الأربعة، ولو كان منهم مَنْ كان أفضل منهم بمراتب لا يجوِّزون أن يجتهدَ بخلاف ما أفتاه واحد منهم. فقال الملك: ما كان واحد منهم في زمن رسول الله والصحابة؟ فقال الجميع: لا، فقال العلامة: ونحن معاشر الشيعة تابعون لأمير المؤمنين عليه السلام نفس رسول الله ﷺ وأخيه وابن عمه ووصيه.

ومن ذلك: أن العلامة خطب بعد انتصاره في المناظرة، فصلى على النبي ﷺ وعلى الأئمة الإثني عشر عليهم السلام فاعترض السيد ركن الدين الموصلي وقال: ما الدليل على جواز الصلاة على غير الأنبياء ؟ فقرأ العلامة في جوابه مباشرةً قوله

تعـــالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾. فقال: أي مصيبة أصابت عليًّا وأولاده ليستوجبوا بها الصلاة؟ فذكر له العلامة مصائبهم المشهورة وقال: وأي مصيبة أعظم عليهم وأشنع أن حصل من ذراريهم مثل الذي يرجح المنافقين الجهال المستوجبين اللعنة والنكال عليهم! فتعجب الحاضرون من قوة جواب العلامة، وضحكوا على الموصلي. ونظم بعض الشعراء في ذلك المجلس هذين البيتين في شأن هذا السيد:

إذا العلوي تابع ناصبيًّا ... لمذهبه فما هُوَ مِن أَبيه

وكان الكلب خيرًا منه حقًّا ... لأنَّ الكلب طَبع أبيه فيه

وذكر السيد الأمين أنه توجد مؤشرات على أنَّ المناظرةَ جَرَت في بغدادَ، وقال: «قال في الروضات: وتقدم العلامة عند هذا السلطان على سائر علماء حضرته، مثل القاضي ناصر الدين البيضاوي، والقاضي عضد الدين الإيجي، ومحمد بن محمود الآملي صاحب كتاب نفائس الفنون وشرح المختصر وغيره، والشيخ نظام الدين عبد الملك المراغي من أفاضل الشافعية، والمولى بدر الدين الشوشتري، والمولى عز الدين الإيجي، والسيد برهان الدين العبري، وغيرهم، وكان في القرب والمنزلة عند السلطان المذكور بحيث كان لا يرضى أن يفارقه في حضر ولا سفر، بل نقل أنه أمر له ولتلاميذه بمدرسة سيَّارة من الخيام المعمولة من الكرباس الغليظ تنتقل بانتقاله أينما سافر معه»[٣٤].

آثار الآراء الكلامية للعلامة الحلي

تزامنت نشأة مدرسة الحلّة في القرن السادس الهجري مع رواجٍ في التوجُّهات الفقهية وركودٍ في العلوم العقلية، وبالطبع فهذه الظاهرة لا تعني إهمال علم الكلام، إذ إنَّ فقه التشيّع في مدرسة بغداد قد ارتبط ارتباطًا وطيدًا بعلم الكلام الذي أُطلق عليه آنذاك (علم أصول الدين)، لقد أُرسيت دعائم مدرسة الحلّة على وفق أصول مذهب أهل البيت عليهم السلام، لكون الحلّة مدينةً شيعيةً من أساسها، فعندما تأسّست هذه المدينة على يد أمير بني مزيد (سيف الدولة) في سنة ٤٩٥ هـ لم يتصوّر أحدٌ أنّها ستمسي يومًا ملاذًا يأوي إليه أكابر علماء الإمامية بجميع مشاربهم من علماء كلام وفقهاء وهو أمرٌ جعل لها اليد الطولى في مختلف العلوم الإسلامية وغير الإسلامية خلال قرون عديدة؛ ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الساحة العلمية في مدينة الحلّة شهدت رواج أفكار العلَّامَة الحلّيّ في مجال علم الكلام في مدَة متقدِّمةٍ من تاريخ مدرستها، وعلى مرّ الأيام تطوّرت أركان هذا المنهج بفضل نشاطات العلماء الذين استوطنوها.

بلغ علم الكلام الإمامي ذروته واتّسع نطاقه بشكلٍ منقطع النظير ببركة جهود العلَّامَة الحِلِّيّ الذي يشهد له أهل العلم والفضل، ومن ثَمَّ واصل طريقه ولده الكريم فخر المحقّقين (ت ٧٧١ هـ) برفقة سائر الأساطين الذين تتلمذوا على يده، ولا يخفى ما لمناظرات العلَّامَة الحلّيّ من أثر في بلورة الأفكار الشيعية وتنمية الشعور لدى النخب الفكرية والاجتماعية والسياسية بضرورة اتباع الحق الذي يدعو اليه، ولعل المناظرة المشهورة والكبيرة التي جرت في بلاط الملك المغولي[٣٥] محمد خدابنده جاءت في سياق توجه عام أفضى إلى تغييرات جذرية في الثقافة الاجتماعية وانسياق النخبة الحاكمة في أطر هذا التوجه، وقد كان من ضمن تلك الآثار:

أَوَّلًا ـ الأثر السياسي: من المؤكد أنَّ هذا الاتجاه الاجتماعي والسياسي الجديد آثار مجموعة من الارتدادات لدى الآخر السياسي والفكري، ولعل ما ذكره ابن بطوطة يشير إلى جانب الحنق والغيرية في المفاهيم التي أثارتها مناظرات العلَّامة في الحواضر العلمية في ذلك الوقت، قال: «كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت بإسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه، فَزَيَّنَ له مذهب الروافض، وفضَّلَهُ في غيره»[٣٦]. هذا النَّصُّ يكشفُ عن أن تشيع السلطان المغولي كان له وقع شديد على المتعصبين في باقي الفرق الإسلامية، وبصورة خاصة الحنابلة الذين كانوا أعداء السنة والشيعة معًا[٣٧]، ويشبه كلامه كلام الصفدي الذي قال: «وكان خدابنده مسلمًا، فما زال به الإمامية إلى أن رفَّضوه، وغيَّر شعار الخطبة وأسقط ذكر الخلفاء من الخطبة، سوى علي رضي الله عنه» [٣٨]، وهو الأمر الذي سبب خوف ابن تيمية، لكن ابن كثير قال: «وفيها أظهر ملك التتر خدابندا الرفض في بلاده، وأمر الخطباء أن لا يذكروا في خطبتهم إلَّا علّي بن أبي طالب وأهل بيته، ولمَّا وصل خطيبُ باب الأزج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاءًا شديدًا وبكى الناس معه، ونَزَلَ ولمْ يتمكن من إتمام الخطبة، فأقيم مَنْ أتمها عنه وصلَّى بالناس»[٣٩].

والحقُّ الصريحُ أنَّ السلطانَ المغوليَّ تَشَرَّفَ بمذهب أهل البيت عليهم السلام على يد العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره، وكتبَ مرسومًا إلى البلاد بتدريس التشيع في المدارس وإعلان معالمه، وأنه لم تكن في بغداد ردة فعل قوية من السنيين كما زعموا، وإنْ صحَّت أحداث حنابلة باب الأزج وبكاء خطيبهم الحنبلي، لا بد أنهم غيروا الخطيبَ الذي لايقبل ذكر علي والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وقد ذكروا ثلاثة أمور في أسباب تشيع السلطان محمد خدابنده.

الأول: أن السلطان طلق زوجته بالثلاث وندم، فأفتى له فقهاء المذاهب بأن طلاقه صحيح، وأنها تُحرم عليه حتى تنكح زوجًا غيره، فأرشدوه الى العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره فأحضره وناظر الفقهاء وأثبت لهم بطلان الطلاق؛ لأنه بلا شهود، وأنه الطلاق بالثلاث إذا استجمع الشروط لايقع إلَّا طلاقًا واحدًا.. الخ.

والثاني: أن السلطان زار قبر أمير المؤمنين عليه السلام ورأى منامًا في النجف، فدفعه ذلك الى البحث عن مذهب التشيع، فأعجبه وانتمى اليه.

والأمر الثالث: أن السلطان قازان خان محمود أخو الملك محمد خدابنده، كان سنة ٧٠٢ هـ في بغداد، فاتَّفَقَ أنَّ سيِّدًا علويًّا صلَّى الجمعة مع السُّنَّة، ثم صلَّى الظهر منفردًا فقتلوه! فشكا ذووه إلى السلطان فتألم له وغضب مِنْ قَتْل رَجُلٍ من أولاد الرسول صلى الله عليه وآله لمجرد أنه أعادَ صلاتَهُ ! فأخذ يبحث عن المذاهب، وكان في أمرائه جماعة متشيعون منهم الأمير طرمطار بن مانجو بخشي، وكان في خدمة السلطان من صغره، وله وجه عنده، فرغَّبه بمذهب التشيع فدخل فيه، وأنه بعد أن توفي سنة ٧٠٣ هـ خلفه أخوه وأعلن تبنيه للمذهب الشيعي [٤٠].

والأمر الرابع: إن السلطان خدابنده أصيب بصدمة من تناقضات المذاهب وبعض فتاويها، فبقي متحيِّرًا في اختيار المذهب ثلاث سنوات، فاقترح عليه أحد أمرائه المسمى طرمطار اختيار مذهب الشيعة؛ لأن الملك غازان كان أعقل أهل زمانه وأكملهم، وقد اختار مذهب الشيعة، فلم يعجب الشاه كلامه وطلب من العلامة أن يؤلف له كتابًا في التشيع فكتب له (نهج الحق وكشف الصدق) و(منهاج الكرامة) وزاره في عاصمته السلطانية وأهداهما له، وجرت هناك مناظراته مع علماء المذاهب[٤١].

ثانيًا ـ الأثر العلمي: أَلَّف العلَّامَةُ الحِلِّيُّ أغلبَ كُتُبِه الكلامية بناءً على طلب السلطان خدابنده، إذ كانَ مُرافقًا له في أغلب رحلاته في آفاق سلطنته، وذلك بطلب

منه للتوسعة على فكر الشيعة الامامية ونشره في الآفاق، إذ كانت المدرسة السيارة تضم أعدادًا كبيرةً من علماء الأمصار التي تصل اليها ومن الطبيعيِّ أنْ يقومَ هؤلاء الطلبة بنسخ تلك الكتب التي هي في أغلبها عبارة عن محاضرات العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره على تلاميذه[٤٢]، وأضاف السيد الأمين: «وفي مدة إقامته في صحبة السلطان المذكور ألَّف له عدة كتب مثل كتاب منهاج الكرامة، وكتاب كشف الحق، ورسالة نفي الجبر ورسالة حكمة وقوع النسخ، التي سأله عنها السلطان. وأكمل هناك الألف الأول من كتاب الألفين. قال في مقدمة كشف الحق: وامتثلت فيه مرسوم سلطان وجه الأرض، الباقية دولته إلى يوم النشر والعرض، سلطان السلاطين، خاقان الخواقين، مالك رقاب العباد وحاكمهم، وحافظ أهل البلاد وراحمهم، المظفر على جميع الأعداء، المنصور من إله السماء، المؤيد بالنفس القدسية والرياسة الملكية، الواصل بفكره العالي إلى أسنى مراتب المعالي، البالغ بحدسه الصائب إلى معرفة الشهب الثواقب، غياث الحق والدين الجايتو خدبندا محمد، خلد الله ملكه إلى يوم الدين، وقرن دولته بالبقاء والنصر والتمكين، وجعلت ثواب هذا الكتاب واصلًا اليه، أعاد الله بركاته عليه بمحمد وآله الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين. وقال في أول منهاج الكرامة: فهذه رسالة شريفة ومقالة لطيفة، إلى أن قال: خدمت بها خزانة السلطان الأعظم...الخ، وقال في آخر الموجود من كتاب الألفين: فهذا آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب، وذلك في غرة رمضان المبارك سنة ٧١٢ هـ، وكتب حسن بن مطهر ببلدة جرجان في صحبة السلطان الأعظم غياث الدين محمد أولجايتو خلد الله ملكه...[٤٣] وصنف في سفره ذلك (لرسالة السعدية)، ولعله ألف في سفره ذلك الرسالة التي في جواب سؤالين سأل عنهما الخواجة رشيد الدين فضل الله الطبيب الهمذاني وزير غازان، الذي اجتمع به في ذلك السفر الآتي ذكرها في مؤلفاته ، قال في مقدمتها ما لفظه: يقول العبد الفقير

إلى الله تعالى حسن بن يوسف بن المطهر: إنني لما أمرت بالحضور بين يدي الدركاه المعظمة الممجدة الإيلخانية، أيد الله سلطانها وشيد أركانها، وأعلى على الفرقدين شانها...الخ.».

إنَّ إعمامَ السلطان خدابنده لمصادر مذهب أهل البيت عليهم السلام ونَشْر كُتُب عُلمائه، ولا سيَّما نصير الدين الطوسي والعلَّامَة الحِلِّيّ، كان بالغ الأثر في نشر افكار التشيع، وقد انتبه العلَّامَة الحِلِّيّ إلى النوع الذي يمكن من خلاله نشر المذهب الحق في ربوع العالم الإسلامي، فكانَ اهتمامُهُ بالغًا في تأليف التصانيف في علم الكلام الذي بلغ أوج ازدهاره على يديه، وقد نصَّ المؤرخون على أن كتب العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره انتشرت في حياة مؤلفها، قال الصفدي: «الحسن بن يوسف بن المطهر الإمام العلامة ذو الفنون، جمال الدين ابن المطهر الأسدي الحلي المعتزلي[٤٤] عالم الشيعة، وفقيههم، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته. تقدم في دولة خدابنده تقدمًا زائدًا، وكان له مماليك وإدارات كثيرة وأملاك جيدة، وكان يصنف وهو راكب ! شرَحَ مختصر ابن الحاجب، وهو مشهور في حياته»[٤٥].

وقد شهدت المعاهد السنية، ولا سيَّما المدرسة المستنصرية ازدهارًا في عهد الدولة الإيليخانية أكثر من أي وقت مضى، وتخرج منها كبار العلماء والقضاة، وكانت مكتبتها كالمعجزة في ذلك العصر[٤٦]، ومن نماذج ذلك ما قاله ابن حجر في ترجمة الجعبري: «تفقه بالنظامية ومهر فى الطب وبرع فى الإنشاء وفنون الأدب والخط المنسوب، وأخذ عن ابن الصباغ وابن البسيس وغيرهما، واتصل بصاحب الديوان علاء الدين، ثم أقبل على التصوف ودخل في تلك المضايق وعمر لنفسه خانقاه وقعد فيها شيخًا وعظم شأنه عند خدبنداه وانثالت عليه الدنيا حتى كان يقال إن مغله في كل سنة بلغ سبعين ألفًا إلى أن مات فى سنة ٧٢٣»[٤٧]، وذلك يشير الى اهتمام السلطان بالعلماء على اختلاف مذاهبهم، ومن المؤكد أَنَّ لانفتاح

العلَّامَـةِ الحِلِّيّ أثره البالغ في السياسـة الحكيمة التي اتبعهـا خدابنده مع علماء باقي المذاهـب الإسـلامية الأخرى، بل تعـدى اهتمام خدابنده بالعلـم إلى أن يطلب من علـماء المذاهـب الأخرى التأليـف في العلوم التـي برعوا بها ومن نماذجـه، أن أهم كتابين في تأصيل عقائد السـنيين هما: المواقـف للعضدي الإيجي وشرحه للشريف الجرجـاني، وكتاب المقاصد لسـعد الدين التفتـازاني، وقد تمَّ تأليـف أولهما وأهمها بطلب السلطان خدابنده ورعايته[٤٨]، وإن علم من الغلظة في الخلاف على مذهب أهل البيت عليهم السلام، قال القمي: «القاضي عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الشـافعي الأصولي المتكلم الحكيـم المدقق. كان من علماء دولة السـلطان أولجايتو محمـد المعروف بشـاه خدابنـده المغولي يقـال إن أصله مـن بيت العلـم والتدريس والرياسـة وتـولى القضاء بديار فارس إلى أن سـلم له لقب أقـضى القضاة في مدينة شـيراز مع نهايـة الإعزاز، ويقال إنـه كان من أهل النصب متعصبًا معاندًا للشـيعة الإماميـة. لـه شرح مختـصر ابن الحاجـب وهو معروف بـين العلماء، ولـه المواقف في علـم الكلام الـذي شرحه المحقق الشريـف. وله كتـاب في الأخلاق مختصر في جزء لخص فيه زبدة ما في المطولات شرحه تلميذه شـمس الدين محمد بن يوسـف الكرماني المتوفّى سـنة ٧٨٦هـ إلى غير ذلك. وآخر مصنفاته: العقائد العضدية التي شرحها الدواني»[٤٩].

ثالثًا ـ الأثر الاجتماعي: كان لتَبَنِّي التَّشَيُّع من قبل السلطنة وقع كبير على مجمل الحياة الاجتماعية في سـائر البلدان الإسـلامية، إذ شـمل المرسـوم السـلطان محمد خدابنده بتبني مذهب التشـيع: العراق بكامله والخليـج واليمن، وإيران بكاملها، وما وراء النهر أي بلاد آسيا الوسطى، وتركيا التي كانت تسمى بلاد الروم ، وتدل النصـوص على أن مرسـوم السـلطان كان في أول توليه السـلطة، فكان اسـتكمالًا لعمـل أخيـه السـلطان قـازان [٥٠]، وقد كانت سـيرةُ الأخويـن قـازان وخدابنده

محمودةً عند علماء الشيعة قاطبة وهو ظاهر كلام الشيخ آغا بزرك الطهراني في الذريعة [٥١]، وذلك أنَّهُ أصدرَ أمرًا وبَعَثَ به إلى البلاد والأقاليم حتى يخطبوا للأئمة الاثني عشر عليهم السلام في الخطبة، ويكتبوا أساميهم عليهم السلام في المساجد والمعابد [٥٢]، ومن المؤكد أنَّ لذلك دلالات كبيرة تنعكس على الواقع الاجتماعي، ومِن ضمن التغييرات الاجتماعية التي طرَأَتْ على العالم الإسلاميِّ كان في منظومة القضاء، إذ حَصَلَ تَطَوُّرٌ نوعيٌّ في الجهاز القضائي في تلك المدَّة نتيجة دخول الأحكام الجعفرية بصورة معلنة في صلب التداول الحر للأحكام في التنظيمات القضائية، وهو الأمر الذي جعل ثائرة أتباع الخلافة تثور، وذكرته مصادرهم على أنَّهُ حَدَثٌ كبيرٌ وبدعةٌ في الدين! وطبَّلت له وبكت من أجله، لكن من الطبيعي أن تقفَ مجموعة من الأسباب العقائدية دون تطبيق بعض أحكام الشريعة بالنسبة إلى اتباع باقي المذاهب، ولا سيَّما في الأحوال الشخصية، كما لم يتم فرض قضاة شيعة على مناطق السُّنَّة كما كان يحصل في الدولة العباسية[٥٣]، عندما كانت تفرض قضاة سنة على بعض مناطق الشيعة، وربما يرد سؤال في هذا الصدد وهو، ما السببُ الذي كان يكمن دون توجه العلَّامَة الحِلِّيّ وعلماء الشيعة إلى تشييع القضاء في كافة بقاع السلطنة؟، والجواب يكمن في الفكر المنفتح الذي يحمله العلَّامَة الحِلِّيّ قدس سره، فهم من جهة لا يوافقون على سياسة فرض المذهب، ومن جهة يريدون المحافظة على استقلالية المرجعية والحوزة العلمية والجهاز الديني الشيعي عن السلطة، أي سلطة حتى لو كانت شيعية. لذلك اتجهوا إلى تقوية المؤسسات الشيعية الأهلية كالحوزات والمساجد والمشاهد وربما مؤسسات الدولة المسماة دور السيادة، فضلًا عن ذلك كان لهذا التحول أثره في الحالة الاقتصادية والمعاشية لعموم الأمة الإسلاميَّة حينما ضُربت السكة بأسماء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام [٥٤]، وأنشأ دارًا في مختلف الأمصار الإسلامية لمعونة أتباع أهل البيت عليهم السلام ، ولا سيَّما السادة من ذرية النبي صلى الله عليه وآله، سميت

بدار السيادة وهي مؤسسات اجتماعية تهتم بمعيشتهم وتعليمهم وحل مشاكلهم، كان للتطور الحاصل في نوعية الخدمات التي تقدمها السلطة في ذلك الوقت أثره الكبير في تَحَوُّلِ أعداد لا بأس بها إلى المذهب الإمامي.

وشيَّد السلطانُ المغوليُّ محمد خدابنده المتوفَّى في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وابنه السلطان أبو سعيد مدرسة وخانقاه (تكية)[٥٥]، للصوفية في مدينة النجف الأشرف[٥٦]، وقد أعدت هذه التكيَّة مقرًّا للغرباء من الصوفية، ولا سيَّما فرقة البكتاشية[٥٧]، وخصص لها جراية من غلة إقطاعية زراعية قريبة من مدينة الكوفة، وعين عليها موكلًا بالصرف، وكان الدراويش على مرِّ الزمان يسكنونها ويدفنون موتاهم بها، ثم استخدمت مخزنًا لأثاث الروضة الحيدرية، ويبدو أَنَّ هذا الموقع كان مدرسة ومسكنًا في آن واحد، وأنَّ المدرسةَ قد خصصت للصوفية مع سكن هذه الجماعة[٥٨]، وهي اليوم أثرٌ بعد عينٍ. ويقول د. حسن الحكيم: وقد وقفتُ على عملية التهديم فرأيت اختلاط الكتب القديمة والمصاحف الثمينة تُرفع مع الأتربة والحجارة[٥٩].

الخاتمة

خلص هذا البحث إلى النتائج الآتية:

١ ـ يعدُّ العلَّامَة الحِلِّيّ في مقدمة العلماء المسلمين الذين احتل علم الكلام مكانة متميزة في منتجه الفكري.

٢ ـ استطاع العلَّامَة الحِلِّيّ تسخير علم الكلام في الدعوة إلى المنهج الحق، مبتعدًا عن الجدال غير المفضي الى نتيجة سوى التناشز والتباعد.

٣ ـ تقدم العلَّامَة الحِلِّيّ خطوات واضحة عن أسلوب أستاذه المحقق الحلي، مبتعدًا عن شروحات الأسس الكلامية لمن تقدم عليه كما فعل استاذه، فكان له أسلوبه الكلامي الخاص.

٤ ـ أسهمت الآراء الكلامية للعلامة الحلي في تقارب تاريخيٍّ بين السلطة الحاكمة والعالم على أساس من التوازن، بما يحقق استقلال السلطة العلمية بآرائها وباعتقاداتها.

٥ ـ كان مبحث الإمامة في مقدمة المباحث الكلامية التي التزم ببيانها العلَّامَة الحِلِّيّ في اكثر مناظراته، التي جرت في الغالب بمرأى ومسمع من صاحب السلطة السياسية.

٦ ـ استثمر العلَّامَة الحِلِّيّ الطبيعة المرنة لعلم الكلام في اختصاصه بنمط كلامي معين التزم به في أغلب مناظراته.

٧ ـ كانت للآراء الكلامية للعلامة الحلي أثرها في الواقع السياسي والاجتماعي والمعرفي في جميع أصقاع العالم الإسلامي.

٨ ـ ساعد المنهج الكلامي الذي التزم به العلَّامَة الحِلِّيّ على توسعة رقعة المشتغلين بالعلوم الشرعية وفقًا لمذهب أهل البيت عليهم السلام، في جميع أقطار العالم الإسلامي.

٩ ـ لم يشأ العلَّامَة الحِلِّيّ الالتزام بطبيعة العلاقة بين العالم والسلطان في الفكر الإسلامي العام، بل اتخذ اتجاهًا آخر في طبيعة هذه العلاقة مستفيدًا قدر الإمكان من طبيعة هذا التقارب.

الهوامش

(١) الأعلام ٢/ ٢٢٧.

(٢) مواجهة تيارين كلاميين بمدرسة الحلة، مجلة العقيدة العدد (٧)، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

(٣) عقيدة الشيعة ٢٩٥.

(٤) نظير كتاب الشيخ سديد الدين محمود الحمصي (المنقذ من التقليد والمرشد إلى التوحيد)، الصادر في قم عن مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٢هـ، والذي ألفه في الحلة خلال إقامته فيها.

(٥) المحقّق محمّد بن الحسن الجهرودي الطوسي المولود سنة ٥٩٧هـ والمتوفّى سنة ٦٧٢هـ.

(٦) أعيان الشيعة ٥/ ٣٩٦.

(٧) من الجدير ذكره أنّ هذا الكتاب أدى دورًا مُهمًّا في [التأسيس الفلسفي لعلم الكلام في العصور المتأخرة]، فقد صهر الطوسي فيه المنهج الكلامي الشّيعي منذ زمان الشّريف المرتضى- (ت ٤٣٦هـ) بأسلوب فلسفي. وقد اشتمل هذا الكتاب على أهم الموضوعات الكلامية والفلسفية، مصنّفًا إياها في ستة مقاصد هي: ١- في الأمور العامة. ٢- في الجواهر. ٣- في إثبات الصانع وصفاته. ٤- في النبوة. ٥- في الإمامة. ٦- في المعاد. وهذه المقاصد تُعدّ تجسيدًا مكثّفًا (لأبعاد الجدل العقلي في الإسلام) منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي - في النزاع بين الفلاسفة والمتكلّمين من جهة وبين المتكلّمين أنفسهم. وقد أعطى الطوسي هذه الأبحاث قوّة برهانية على أسس فلسفية بحتة، فهو لأول مرّة يضع منهج المعرفة الدينية بالشكل البرهاني طريقًا صحيحًا للوصول إلى نتائج العقيدة فلسفيًا، وقد احتذى المتكلّمون من بعده طريقة هذا الكتاب في وضع المؤلّفات الكلامية، ككتاب (المواقف) لعضد الدين الايجي (ت ٧٥٦هـ) وكتاب (المقاصد) لسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) وكتاب (المجلي) لابن أبي جمهور الأحسائي (ت ٩٠١هـ)، فضلاً عن كتب العلامة الحلّي الذي أرسى ذلك المنهج وكانت كتب القوم بمثابة رد على ما طرحه الحلي.

(٨) ينظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص ٣٩٦.

(٩) عنى بالخرّيت: المحقق الحّلي، وبالعالم: العلامة الحلّي.

(١٠) ينظر: محمّد بن سعيد بن هبة الله الراوندي (ظهير الدين)، ص ٤٢.

(١١) الاتجاهات الكلامية لمحدثي الكوفة في القرن الثالث الهجري ٢٧.

(١٢) رياض المحدثين ٣٧٤.

(١٣) العقلانية والشعر في كلام الشيعة، مجلة (نقد)، العددان (٣ ـ ٤).

(١٤) آل بويه اول سلالة شيعية قوية ٣٢٥.

(١٥) بحار الانوار، ط٢، ١٠٧: ٣٣ ـ ٣٤. وينظر: طبقات المعتزلة ١١٢ – ١١٨.

(١٦) فلاسفة الشّيعة ص ٢٧٢.

(١٧) بحار الأنوار ١٠٧/ ٦٠. وينظر: ٤٨، أمل الآمل في علماء جبل عامل ٢/ ٢٤٥.

(١٨) الطوائف الإسلامية في إيران ١٣ وما بعدها.

(١٩) الأسرار الخفية في العلوم العقلية، المقالة الخامسة، البحث الثاني.

(٢٠) هو فيلسوف ومتكلّم شهير، صاحب تصانيف مهمة في العقليات، أشهرها قواعد المرام في علم الكلام، وشرح فلسفي لنهج البلاغة، وله آثار أخرى ما زالت خطية، ككتاب البحر الخضم في الإلهيات، وغاية النّظر في علم الكلام، والوحي والإلهام، والمعراج السّماوي وغيرها. ينظر: قواعد المرام في علم الكلام ٨ و١٢، إرشاد الأذهان ١/ ٤٠.

(٢١) أعيان الشّيعة ٥/ ٣٩٨.

(٢٢) عقيدة الشّيعة ٢٩٥.

(٢٣) أحصى العلامة اليزدي مخطوطات هذا المؤلّف فبلغت ١٣ نسخة خطّية. ينظر: مكتبة العلامة ٥١.

(٢٤) ذكر هذه المؤلّفات برمّتها: نور الله التستري، في كتابة إحقاق الحق، ١: ٥٥ ـ ٥٦. المقدّمة.

(٢٥) ألّفه ﷺ للرد على آراء الأشعرية، وأُلف حوله كتب كثيرة، منها محاولة لنقضه ككتاب (إبطال الباطل..) للفضل بن روزبهان الأصفهاني. ومنها انتصارًا لآرائه ككتابَيْ إحقاق الحق للقاضي الشهيد نور الله الحسيني المرعشي، ودلائل الصّدق للشيخ محمد حسن المظفّر. ينظر: نهج الحق وكشف الصّدق، ٣٤.

(٢٦) يعدّ هذا الكتاب أهم شرح على التّجريد

(٢٧) حاول ابن تيمية الرّد عليه ومناقشته في كتاب أسماه (منهاج السّنة).

(٢٨) قصد بتأليفه ذكر ألف دليل على إثبات إمامة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وألف دليل على بطلان إمامة غيره، ورد شُبَه المخالفين، فأتم الألف الأولى وقسمًا من الألف الأُخرى، وهو مطبوع.

(٢٩) . ينظر: نظرية الإمامة لدى الشّيعة الإثني عشرية ٥٠٩.

(٣٠) عقيدة الشّيعة ٢٩٥.

(٣١) مناهج اليقين، المقدّمة، ص٥٧ (التّقديم).

(٣٢) يرى حسن الأمين أنّ العلامة الحلّي هو الذي اقترح طريقة محاججة خصومه بصورة علنيّة، إذ كان متأكّدًا أنّه سيكون الحلقة المفقودة التي سوف تسهم في فسح المجال للامتداد السّياسي والعقائدي للشّيعة الإمامية في عهد المغول.

(٣٣) السلطان محمد خدابنده (٦٧٨ هـ ١٢٨٠ م- ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م) ثامن ملوك الإلخانية.

(٣٤) أعيان الشيعة، ٥/ ٣٩٩.

(٣٥) فلاسفة الشّيعة، ص٢٧٢ - ٢٧٣.

(٣٦) رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ١/ ١٤٩.

(٣٧) الكامل في التاريخ، ٩/ ٥٥١.

(٣٨) الوافي بالوفيات، ٢٠١٠، ٢/ ١٢٩.

(٣٩) البداية والنهاية، ١/ ٥٦.

(٤٠) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص ٢٢٤.

(٤١) نهج الحق وكشف الصدق، مصدر سابق، المقدمة.

(٤٢) مناهج اليقين، التّقديم: ص٥٥، كتاب الألفين ص ٢٥. ينظر أيضًا: المغول بين الوثنية والنّصرانية والإسلام، ص٣٥٨.

(٤٣) كتاب الالفين، ص٣٠.

(٤٤) في قوله المعتزلي نظر؛ لأن العلامة الحلي وإنْ تتلمذ على المحقق الحلي ﷺ الذي شرح آراء السيد المرتضى الكلامية المتأثرة أساسًا بالفكر الاعتزالي البصري المتأخر، غير أنَّ العلامة كان شديد العلقة بالمدرسة المشائية الفلسفية التي أجاد ميثم البحراني في إيصال مطالبها إلى العلامة الحلي، ومن هنا نجده شديد الإقبال على الفلسفة وزجها في المباحث الكلامية، وذلك لم يكن في منهج المعتزلة.

(٤٥) الوافي بالوفيات ١٣/ ٥٤.

(٤٦) الحوادث الجامعة ٣٦٦-٣٦٧.

(٤٧) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٣/ ١٢٩.

(٤٨) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١٦٥٣.

(٤٩) الكنى والألقاب ٢/ ٤٧٢.

(٥٠) توضيح المقاصد ٢٧.

(٥١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٣/ ٢٧٠.

(٥٢) مختلف الشيعة ١/ ١١١.

(٥٣) مواجهة تيارين كلاميين بمدرسة الحلة ٢٢.

(٥٤) المغول بين الوثنية والنّصرانية والإسلام

٣٥٣. ويُنظر: الشّرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ٣٦٧. ورقة ١٩٩.

(٥٥) الربـاط، الزاويـة، الخنقـاه والتكيـة... كلـمات مترادفـة تطلـق عـلى نـوع مـن العـمارات الدينية الخيريـة التي أقيمت في الأقاليـم العربية والإسـلامية للإقامة بها لأغراض العبـادة والتزهد. ينظر: الربط والتكايـا البغداديـة في الفـترة العثمانيـة (٩٤١ - ١٣٣٦هـ/ ١٥٣٤ - ١٩١٧م) تخطيطها وعمارتها، رسالة ماجستير ٥.

(٥٦) ماضي النجف وحاضرها ٤٦.

(٥٧) البكتاشـية: فرقة صوفية تركية تنسـب إلى السـيد محمد بن ابراهيم أغا، الشـهير بالحـاج بكتاش. وهو ولي تركي من أتباع الشيخ أحمد اليسوس، قدم إلى الأناضول مـن خراسـان في القـرن الثالـث عـشر الميـلادي. وشرع في الدعـوة إلى طريقته. ماضي النجف وحاضرها ٩١.

(٥٨) يذهـب إلى هذا الرأي كـون هذا الموقع مدرسة أسـتاذنا د.حسن عيسى الحكيم. ولا يرى الشـيخ جعفر محبوبة والأسـتاذ محمد الخليلي ذلك، وكونها مدرسة أقرب إلى الصـواب إذ إن التكيـة كانـت محـل اجتـماع فـرق الصوفية، فلا بـد أن كانت تجري بينهم المناظرات والمناقشات وهذا ما يحققه الغرض الدراسي.

(٥٩) المفصـل في تاريـخ النجـف، مخطـوط،

المصادر والمراجع

١. آل بويه أول سلالة شيعية قوية: علي أصغر فقيهي، دار نوزان راد المتحدة للنشر ـ طهران، ط١، ١٤٣٣هـ.

٢. الاتجاهات الكلامية لمحدثي الكوفة في القرن الثالث الهجري: حسين جويد الكندي، مطبعة الثقلين ، النجف الأشرف، ط١ ، ١٤٣٨هـ.

٣. إحقاق الحق: نور الله التستري، تعليق المرعشي النجفي، د. ت.

٤. إرشاد الأذهان: الحسن بن يوسف الحلي العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق فارس تبريزيان، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠هـ.

٥. الأسرار الخفية في العلوم العقلية: الحسن بن يوسف الحلي العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ)، حقّقَهُ د. حسام محيي الدين الآلوسي و د. صالح مهدي الهاشم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.

٦. الأعلام: خير الدّين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.

٧. أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين، دار التّعارف، بيروت، ١٩٨٦م.

٨. (كتاب) الألفين: الحسن بن يوسف الحلي العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ)، الكويت، ط١، ١٩٨٥م.

٩. أمل الآمل في علماء جبل عامل: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، مكتبة الأندلس ـ بغداد، د. ت.

١٠. بحار الأنوار: المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ)، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.

١١. البداية والنهاية: ابن كثير، مراجعة وضبط وتقديم د. سهيل زكار، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.

١٢. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: السيد حسن الصدر، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

١٣. توضيح المقاصد: الشيخ البهائي، منشورات جماعة المدرسين، قم، ١٤١١هـ.

١٤. الحوادث الجامعة: مجهول، تحقيق د. بشار عواد معروف و د. عماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م.

١٥. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط٢، ١٩٧٢م.

١٦. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: أغا بزرك الطهراني، ط٣، مطبعة دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٧. الربط والتكايا البغدادية في الفترة العثمانية (٩٤١ – ١٣٣٦هـ/ ١٥٣٤ – ١٩١٧م) تخطيطها وعمارتها: حميد محمد حسن الدراجي، رسالة ماجستير غير

منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦.
١٨. الرّجال: ابن داود الحلي، المطبعة الحيدرية، النّجف الأشرف، ١٩٧٢م.
١٩. رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ)، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٢٨م.
٢٠. رياض المحدثين: محمد علي بن الحسين النائيني الأردستاني الكجوئي القمي (ت ١٣٣٥هـ)، تحقيق محمد رضا الأنصاري، مكتبة آية الله المرعشي ـ قم، ط١ ـ ٢٠٠٣م.
٢١. الشّرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين: فؤاد عبد المعطي الصّياد، مركز الوثائق والدّراسات الإنسانية، جامعة قطر، سنة ١٩٨٧م.
٢٢. طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى، تحقيق سُوسَنّة دِيفَلْد – فِلْزَر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.
٢٣. عجالة المعرفة في أصول الدين: محمّد بن سعيد بن هبة الله الراوندي، قم، مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، ١٩٩٨م.
٢٤. عقيدة الشّيعة: دوايت م رونلدسن، تعريب ع. م، مؤسسة المفيد، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٥. فلاسفة الشّيعة: عبد الله نعمة، دار الفكر ـ بيروت، د. ت.
٢٦. قواعد المرام في علم الكلام: كمال الدين بن علي البحراني، تحقيق أحمد الحسيني، مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٦هـ.
٢٧. الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري، مطبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٨. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، تحقيق محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، د.ت.
٢٩. الكنى والألقاب: القمي، مكتبة الصدر، قم، د. ت.
٣٠. لؤلؤة البحرين: يوسف البحراني، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، مطبعة الغري، النجف الأشرف، د.ت.
٣١. ماضي النجف وحاضرها: جعفر محبوبة، دار الأضواء، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م.
٣٢. مختلف الشيعة: الحسن بن يوسف الحلي العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤١٣هـ.
٣٣. المغول بين الوثنية والنّصرانية والإسلام: حسن الأمين، دار التّعارف، بيروت، ١٩٩٣م.
٣٤. المفصل في تاريخ النجف: د. حسن الحكيم، مخطوط، في مكتبة المؤلف.
٣٥. مناهج اليقين: الحسن بن يوسف الحلي العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق محمد رضا الأنصاري، قم، ١٤١٦هـ.
٣٦. المنقذ من التقليد والمرشد إلى التوحيد: سديد الدين محمود الحمصي، قم،

منشـورات مؤسّسـة النشر الإسلامي، ١٤١٢هـ.
٣٧. نظريـة الإمامـة لـدى الشّـيعة الاثنـي عشريـة: أحمـد محمـود صبحـي، دار النّهضة العربية، ١٩٩١م.
٣٨. نهـج الحـق وكشـف الصدق: الحسـن بـن يوسـف الحـلي العلَّامة الحـليّ (ت ٧٢٦هـ)، تحقيـق رضـا الصـدر، مؤسسـة الطباعة والنشر، دار الهجرة، قم، ١٤٢١هـ.
٣٩. الـوافي بالوفيـات: خليـل بـن أيبـك الصفـدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق جلال الأسـيوطي، دار الكتـب العلميـة، بيروت، ط١ ، ٢٠١٠م.

الدوريات:

١. مجلة العقيدة العدد (٧)، السـنة الثالثة، ربيـع الثـاني ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م: مواجهـة تيارين كلاميـين بمدرسـة الحلة: محمد تقي سبحاني، ترجمة أسعد مندي الكعبي.
٢. مجلـة نقـد، العـدد (٣ ـ ٤): العقلانيـة والشـعر في كلام الشـيعة: محمـد تقـي سبحاني.